ابن تيميّة والمصلحة من وجود أهل البيت عليهم السلام :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَثَلُ أهل بيتي مَثَلُ سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق »[1].

قال ابن حجر : جاء ـ الحديث ـ من طرق عديدة يقوّي بعضها بعضاً... وأنّ وجه تشبيههم بالسفينة : أنّ من أحبّهم وعظّمهم، وأخذ بهدي علمائهم نجا من ظلمة المخالفات، ومن تخلّف عن ذلك غرق في بحر كفر النِعَم، وهلك في مفاوز الطغيان[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « النُّجومُ أمان لأهل الأرض من الغَرق، وأهل بيتي أمان لأُمّتي من الاختلاف، فإذا خالفتهم قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس »[3].

قال ابن حجر : المراد بأهل البيت الّذين هم أمان : علماؤهم؛ لأنّهم الّذين يُهتدى بهم كالنجوم، والّذين إذا فُقدوا جاء أهل الأرض من الآيات ما يوعدون[4].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتُم به لن تضلّوا: كتاب

---

(١) المستدرك ٢: ٣٤٢ وصحّحه على شرط مسلم، عيون الأخبار لابن قتيبة ١: ٢١١، المعارف: ١٤٦، تاريخ بغداد ١٢: ٩١، تفسير ابن كثير ٤: ١٢٣، مجمع الزوائد ٩: ١٦٨، الصواعق المحرقة: ٢٣٦، روح المعاني ٢٥: ٣٢، الخصائص الكبرى ٢: ٢٦٦.

(٢) الصواعق المحرقة: باب ١١ فصل ١، الآية السابعة: ١٥٢.

(٣) المستدرك ٣: ١٤٩ وقال حديث صحيح، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢: ٦٧٢ / ١١٤٥، الخصائص الكبرى ٢: ٢٦٦، الجامع الصغير ٢: ٦٨٠ / ٩٣١٣، الصواعق المحرقة: ١٥٢ ـ ١٥٣، ٢٣٦.

(٤) الصواعق المحرقة: ١٥٢.

الله، وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض»[١].

قال ابن حجر: في أحاديث الحثّ على التمسّك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهّل منهم للتمسّك به إلى يوم القيامة كما أنّ الكتاب العزيز كذلك[٢].

قال الشبراوي: قد أكرم الله تعالى آل بيت نبيّه بأن جعل فيهم القطبانيّة، ومنهم المجدّد على رأس كلّ سنّة لهذه الأُمّة أمر دينها. فقد قال هارون الرشيد لموسى الكاظم وهو جالس عند الكعبة: أنتَ الذي تُبايعك الناس سرّاً ؟!.

فقال له: أنا إمام القُلوب، وأنت إمام الجسوم.

قال: وما أحسن ما قيل:

ملوكٌ على التحقيق ليس لغيرهم ... من الملك إلّا وزرة وعفاته
شموس الهدى منهم، ومنهم بدورُهَا ... وأنجُمُهُ منهم، ومنهم شهابه[٣]

أمّا ابن تيميّة فله قولٌ آخر، فهو يرى أنّه لم تكن هناك مصلحة للعباد في وجود أيّ واحد من هؤلاء الأئمّة !.

يقول: ومن المعلوم المتيقّن أنّ (هذا المُنتظَر) الغائب المفقود لم يحصل به شيء من المصلحة واللطف سواء كان ميّتاً كما يقول الجمهور، أو كان حيّاً كما تظنّه الإماميّة، وكذلك أجداده المتقدّمون لم يحصل بهم شيء من المصلحة واللطف الحاصلة من إمام معصوم ذي سلطان كما كان النبيّ صلى الله عليه وآله بالمدينة بعد الهجرة ! فإنّه كان إمام المؤمنين الّذين يجب عليهم طاعته ويحصل بذلك سعادتهم !![٤].

---

(١) تقدّم مع تخريجه عن مسلم والترمذي وأحمد وغيرهم.
(٢) الصواعق المحرقة: ١٥١.
(٣) الشبراوي: الإتحاف بحبّ الأشراف: ٢٠.
(٤) منهاج السُنّة ٢: ٨٤.

تُرى قبل الهجرة ماذا كان ؟!.

ألم يكن من بعثة النبيّ ﷺ ووجوده مصلحة ؟! ولم يكن لبعثته مصلحة حتّى تحقّق له السلطان فأطاعه الناس ؟!.

تُرى لو قُدّر أنّه لم يتحقّق له سلطان، فماذا ؟!.

وأُولئك الأنبياء عليهم السلام الّذين عصتهم أقوامهم أو قتلتهم، ألم يكن من بعثتهم مصلحة ؟!.

إنّه بهذا يقول: إنّ المصلحة المتحقّقة من وجود سلطان قائم لا يتحقّق منها شيء بوجود نبيّ ليس له سلطان ولا يطيعه قومه، فلا معنى عنده لوجود هذا العدد الكبير من الأنبياء الّذين كَبَتَهُمْ أقوامهم وقتلوهم وحالوا دون نشر رسالاتهم !.

إنّه يقول بهذا تماماً حين يواصل برهانه قائلاً:

ولم يحصل بعد النبيّ أحد له سلطان تُدّعى له العصمة إلّا عليّ عليه السلام زمن خلافته، ومن المعلوم أنّ المصلحة واللطف الذي كان المؤمنون فيها زمن الخلفاء الثلاثة أعظم من المصلحة واللطف الذي كان في خلافة عليّ زمن القتال والفتنة والافتراق !.

فلا مصلحة إذن إلّا بالسلطان ! هذه هي النتيجة التي يبلغها فيقول: فعُلم بالضرورة أنّ ما يدّعونه من اللطف والمصلحه الحاصلة بالأئمّة المعصومين باطلة قطعاً![1].

لماذا ؟! لأنّ أحداً منهم لم يتحقّق له السلطان ولم تدخل كلّ الأُمّة في طاعته !.

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٨٤، ويكرّر هذا المعنى في ص ١٠٨ ـ ١٠٩ من هذا الجزء أيضاً.

ماذا يقول عاقل مرّ على قريةٍ غلب على أهلها التخلّف فهم لا يفقهون حتّى مبادئ الزراعة الأوّليّة، وغلب عليهم العناد فهم يستكبرون حتّى عن إلقاء البذور على وجه الأرض، ويرى أنّ السماء تمطرهم بين الحين والحين وهم مع ذلك جياع منهكون، أيقول إنّه ليس للمطر فائدة، وإنّ ما يزعمونه من المصلحة الحاصلة بنزول المطر باطلة قطعاً ؟!.

ذاك حديث الجاهلين.. حديث لا يرتضيه حتّى أُولي الأهواء الهابطة.

فما المصلحة ـ عند هؤلاء ـ من سفينة نوح حين لم يركبها قومه فغرقوا جميعاً وهلكوا ؟!.

أيقول أحد يؤمن بالله واليوم الآخر إنّه ليس في نوح وسفينته مصلحة ولا لطف لأنّ قومه عاشوا في زمانه فتناً واختلافاً كثيراً انتهى بهلاكهم جميعاً غير نفرٍ قليل كانوا معه ؟!.

إنّها لغةٌ بعيدة عن معاني لغة السماء، بعيدة عن معاني القيم التي عرفها بني الإنسان، فعرفوا للعظماء حقّهم، وعظّموا قدرهم، وأنّبوا الإنسان الجافي لصدوده عنهم وإخلاده إلى الأرض !.

لقد عظّم أُولو النفوس الكريمة دعاة الإصلاح وحَمَلَة مشاعل النور والخير أبداً..

فمن جهل قدر المسيح عليه السلام وهو يعلم أنّ قومه لم يجنوا من معين الخير الذي جاء به إلّا نزراً يسيراً، ثمّ أهدروه ؟!.

ومن يُنكر أنّ يحيى بن زكريّا كان خيراً كلّه ولطفاً وصلاحاً للإنسانيّة، وإن أضاعه عبيد الأرض فلم ينتفعوا من خيره شيئاً لدنياهم أو أُخراهم ؟!.

وهذا كتاب الله الحكيم الذي جمع خير الدنيا والآخرة، وقد تركه الناس وراء ظهورهم بين كافر ومعاند وجاهل ومسلم لم يدخل الإيمان قلبه، فلم ينتفعوا به شيئاً، أيقال إنّ المصلحة من إنزاله باطلة قطعاً ؟! عدنا إلى حديث الجاهلين..

نورٌ على نور، يهدي اللهُ لنوره من يشاء: «الثقلَين» «إن تمسّكتُم بهما» «لن تضلّوا بعدي» ! معادَلة رياضية ذات طرفين:

(الثقلين) + (التمسّك بهما) = «لن تضلّوا بعدي»

«الثقلَين» = «كتاب الله» + «عترتي أهل بيتي» وقال النبيّ: «لن يتفرّقا»

∴ (كتاب الله + عترتي أهل بيتي) + (التمسّك بهما) = «لن تضلّوا بعدي».

وهو المطلوب.

(أرض صالحة للإنبات + ماء فرات) + حُسن الانتفاع بهما = ثروةٌ ورفاه.

فهل يلقي باللائمة على التربة والماء من لم يُحسن الانتفاع بهما وهَدَرَ ما فيهما من ثروة ؟! ومن أخذ التربة يزرعها ويداريها وقد حبس عنها الماء فلم يحصد إلّا العناء والشقاء، أيقول إنّه لا خير في الماء ولا لوجوده مصلحة ؟!.

كانت تُحدّثنا الأساطير بأحكام كهذه يقصّها علينا أجدادنا ونحن صغار ليُضحكونا، فنضحك لها ونغيب في الضحك حتّى يخشى علينا أهلونا الاختناق، فما فجأنا إلّا أن نرى تلك الأحكام عقيدةً يدين بها (الفقيه) (الإمام)، ويختم بها تصوّره للدين والحياة، ونظرته للأنبياء والأوصياء والأسباط !!.